

نحو منهج تربوي إسلامي

نحو منهج تربوي إسلامي

الدكتور محمد باقر الحجبي

أستاذ في جامعة طهران

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد أشرقت شمس الإسلام على العالم يوم كانت المجتمعات البشرية تتذبذب، وهي مكبّلة بقيود الجهل والاضطراب والفوضى، يوم كانت الرذائل الأخلاقية تسود تلك المجتمعات بدلاً من الفضائل، يوم لم تكن البشرية في كل أرجاء العالم - وهي قد انحرفت عن الطريق السويّ - لتنتمدّع بأي مظاهر من مظاهر حياة تليق بإنسانية الإنسان فيما بين مجتمعاتها، التي كانت تسودها الانضرابات والحروب والاشتباكات والفساد والجهل والهمجية، ويخيم عليها ظلام دامس لا يطاق.

في مثل ذلك الوقت الذي فقدت الحياةُ كل مظاهر الاستقرار والهدوء والراحة فيه كانت الحاجة إلى ظهور

مصلحة وقائد قوي يحمل رسالة ذات مسؤولية عالمية لإنقاذ هذه البشرية المتهاوية الضعيفة.

في مثل هذه الظروف بعث رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وهو يحمل رسالة تحيط بجميع شؤون الحياة البشرية بكل أبعادها وجوانبها وخصائصها المختلفة كانت رسالته سماوية خالدة لم تغفل عن ذكر كل ما من شأن أن يبني الإنسان بناءً صالحًا.

—(292)—

إن كل محقق متبدع يدرى أن هذه الثقافة الإسلامية لم تترك أي زاوية من زوايا الحياة الإنسانية دون أن تعنى بها العناية الالزمة؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَأْبٍ إِلَّا فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطْهِيرُ بِرْجَنَاتِهِ إِلَّا مُمَمْ أَمْثَالُكُمْ مَمَّا فَرَّ طَنَّا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(1).

وببناء على هذا فإن علينا أن نبحث عن حقائق الحياة الإنسانية وأسرارها في القرآن وفي التعليمات الإسلامية، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم يتميز بالإيجاز عموماً، فإنه في هذا الخصوص جامع لكل رؤوس الأسرار البناءة للإنسان، إلا أنّها تتطلب الشرح والتيسير والتحليل والتوضيح، وهذا ما اطلع به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بادئ الأمر، ومن ثم انتقل الأمر إلى عترة الذين تعهدوا أسرار هذه الرسالة السماوية.

إذ فالثقافة الإسلامية هي الثقافة الجامحة الشاملة الوحيدة التي عرفها البشر، وفيها كل الأصول والمبادئ التي تجعل من حياة الإنسان بناءً متكملاً متقدماً ليتمكن العثور من خلالها على جميع أسرار سعادة الإنسان.

كل باحث موضوعي منصف حين يلح ساحة الثقافة الإسلامية بكل أعماقها وأبعادها يرى - بما لا يقبل الشك - ألوان المعارف التي تعالج كل الزوايا الخفية المعقّدة التي تحيط بالإنسان من الخارج وتعتمل في داخله.

هذه الثقافة الغنية والتعليمات السامية كبحر راشر بأنواع الدرر والجواهر التي ينبغيبذل الجهد لاستخراجها واستثماره في طريق بناء الإنسان وصياغة الكائن الأمثل.

العلماء المسلمين نشطوا منذ بداية انتفاضة النهضة العلمية الإسلامية لاستخراج هذه الجوهر والدرر الثمينة واستطاع كل منهم حسب تخصصه وقدرته أن يستخرج من التحف ما يبيّن غنى الثقافة الإسلامية وعظمتها وأن يفتح للأجيال أبواباً جديدة للمعرفة والعلم.

1 - سورة الأنعام: 38

-(293)-

ولكن خلال فترة طويلة من عهود الضياع والقهر والهوان لم يدع أعداء الإسلام المعتمد^٦ بن سهما في جعبتهم إلا رموا به الشريعة الغراء إضعاً فـأـتـمـسـكـ أـبـنـاءـ الإـسـلـامـ بـدـيـنـهـ وـتـمـهـيـداـ لـتـسـمـيـمـ عـقـولـهـمـ بـالـفـكـرـ الجاهلي المادي الحديث.

ومع كل^٧ تلك المساعي المحمومة المبرمجـةـ والنـشـاطـاتـ الـكـيـدـيـةـ الـمـنـسـقـةـ وـالـأـسـالـيـبـ الـعـدـوـانـيـةـ الدـقـيقـةـ الـهـدـاـمـةـ يـقـفـ الـفـكـرـ الـإـسـلـامـيـ العـظـيمـ لـيـرـكـلـ بـقـدـمـيهـ حـصـادـ الـحـضـارـةـ الـمـادـيـةـ الـشـرـقـيـةـ وـالـغـرـبـيـةـ وـلـيـهـمـ بـنـاءـ الـفـكـرـ الـجـاهـلـيـ الـمـعـاصـرـ بـلـ رـقـذـفـ بـالـحـقـقـ عـلـىـ الـأـبـاتـيلـ فـيـدـمـغـهـ فـإـذـا هـوـ زـاهـقـ وـلـكـمـ الـوـيـلـ مـمـاـ تـصـفـونـ(١).

إنـماـ نـعـلـمـ أـنـ أـعـدـاءـ الـإـنـسـانـيـةـ وـالـإـسـلـامـ مـنـ مـصـاصـيـ دـمـاءـ الشـعـوبـ وـمـرـوـجـيـ الـقـوـانـينـ الـوـضـعـيـةـ وـالـمـبـادـئـ الـفـاسـدـةـ عـمـلـواـ عـلـىـ تـنـحـيـةـ مـنـهـجـ الـإـسـلـامـ عـنـ مـجـالـ الـتـعـلـيمـ وـالـتـرـبـيـةـ؛ـ فـمـنـيـتـ الـبـشـرـيـةـ،ـ بـأـلوـانـ الـفـسـادـ وـهـاـنـتـ كـرـامـةـ الـإـنـسـانـ،ـ وـضـرـبـتـ الـفـوـضـيـ أـطـنـاـبـهاـ فـيـ تـخـومـ الـمـجـتمـعـاتـ.

وـإـذـاـ كـانـ قـيـامـ الـدـوـلـةـ الـإـسـلـامـيـةـ الـمـبـارـكـةـ فـيـ إـيـرانـ بـشـيرـ خـيـرـ وـيـمـنـ وـسـعـادـةـ لـجـعـلـ الـإـسـلـامـ الـعـظـيمـ يـقـودـ الـبـشـرـيـةـ وـيـحـقـقـ الـاسـتـقـامـةـ وـالـاسـتـقـرارـ فـإـنـ حـدـةـ الـانـحرـافـ لـدـىـ النـاسـ وـالـجـهـودـ الـمـهـمـوـمـةـ لـتـكـرـيـسـ هـذـاـ الـانـحرـافـ يـسـتـلـزـمـ اـسـتـنـفـارـ كـلـ الطـاقـاتـ مـنـ أـجـلـ تـحـقـيقـ هـذـاـ الـهـدـفـ الـكـبـيرـ.

فـمـنـ الـمـسـائـلـ الـتـيـ اـتـسـمـتـ فـيـ حـيـاتـنـاـ الـمـعـاـصـرـ بـأـهـمـيـةـ قـصـوـيـ هـيـ مـسـأـلـةـ التـرـبـيـةـ وـالـتـعـلـيمـ،ـ وـفـيـ الـثـقـافـةـ الـإـسـلـامـيـةـ نـجـدـ أـسـمـىـ وـأـفـضـلـ الـتـعـلـيمـاتـ التـرـبـيـةـ وـأـرـقـاـهـاـ مـمـاـ لـاـ نـظـيرـ لـهـاـ أـبـداـ فـيـ ثـقـافـاتـ الـأـمـمـ الـأـخـرـىـ.ـ فـإـلـإـسـلـامـ عـلـىـ هـذـاـ الصـعـيدـ لـمـ يـغـفـلـ حـتـىـ عـنـ ذـكـرـ أـصـفـرـ الـأـمـورـ وـأـتـفـهـهـاـ،ـ بـلـ وـضـعـ الـمـنـاهـجـ

الحقيقة المدروسة من أجل تربية جيل سالم، صالح ينفع نفسه وينفع إخوانه في الإنسانية، وأذّها في الحقيقة لمناهج رائعة، هادفة وراقية. إن كتابنا

1 - سورة الأنبياء : 18 .

-(294)-

السماوي والأحاديث التي تفسّر في الواقع هذا الكتاب وترسّحه كلّها حافله بالحقائق التربوية ودقائقها لذلك في الحقبة التي لم يكن الغربيون يعرفون شيئاً - حتّى فيما بينهم وبين أنفسهم عما يسمّى بالتربية والتعليم - كان المسلمون قد ألفوا الكتب التخصصية في موضوعات تتعلق بالتربية والتعليم.

العلماء المسلمون تركوا في حقل التربية والتعليم آثاراً قيّمةً يستحق كلّ منها أن نقف عنده طويلاً، ونتعمّق في محتواه ومع أنّ كثيراً من هذه الكتب والآثار قد عفا عليه الدهر، وكثيراً منها لا يزال على رفوف المخطوطات ولم يسلط عليه الضوء حتّى الآن، فإنّ ما بقي منها وما هو متاح يستطيع إلى حدّ كبير أن يلبي حاجة التربية والتعليم وتدوين الكتب الدراسية في هذا الحقل.

هذه الآثار المتبقّية تستطيع إضافةً إلى سدّ حاجة العالم الإسلامي في تدوين كتب التربية والتعليم، أن تسدّ حاجة جميع المجتمعات الإنسانية في مجال التربية والتعليم.

العلماء المسلمون دونوا منذ أقدم العصور كتباً مفردةً ومستقلةً في التربية والتعليم، ولهم في ذلك قاصبُ السبق، وتواصلت جهودهم الجبارة على مدى القرون والأعصار ولاسيما إلى القرن الثامن من الهجرة.

في القرون الوسطى - يوم كان الغرب غائباً في أوحال الجهل والهمجية والتوحش - ظهر أمثال أبي عبد الله محمد بن سحنون المغربي (م: 256 هـ ق) بكتابه حول التربية والتعليم وقد استقى محتواه من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

ما دوّنه المسلمون من كتب مستقلة في حقل التربية والتعليم تبلغ في كثرتها وتنوّعها حدّاً لافتاً للنظر لا يمكن إحصاؤه واستقصاؤه في هذه الفرصة القصيرة. أضف إلى هذه الكتب، الكتب التي لم تدوّن تحت عنوان «التربية والتعليم» أو ما يشا بهه ولكنها تحتوي على موضوعات قيّمة كثيرة في التربية والتعليم. والآن نذكر أدناه نماذج من الكتب

-(295)-

التي استقلت في التربية والتعليم حسب ترتيب القرون:

\$ آداب المعلمين مما دوّن ابن سحنون عن أبيه، لأبي عبد الله محمد بن سحنون المغربي (م: 256 هـ ق) في القرن الثالث من الهجرة.

\$ مختصر كتاب العالم والمتعلم، لمحمد بن عمر السمرقندى (ت: 280 هـ ق) في القرن الثالث من الهجرة.

\$ تلقين المتعلم ، لابن عبادة إبراهيم بن محمد (ت : 400 هـ ق) في القرن الرابع من الهجرة.

\$ الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، لأبي الحسن علي بن خلف القابسي الفقيه القرطاجي المالكي (324 - 403 هـ ق) في القرنين الرابع والخامس من الهجرة.

\$ تقييد العلم، لأبي بكر أحمد بن علي ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (392 - 463 هـ ق) في القرن الخامس من الهجرة.

\$ الرحلة في طلب الحديث، له أيضاً .

\$ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (368 - 463 هـ ق) في القرنين الرابع والخامس من الهجرة.

\$ منهاج المتعلم لأبي حامد محمد بن محمد الغزالى (450 - 505 هـ ق) في القرن السادس من الهجرة.

\$ طراز الذهب في أدب الطلب، لأبي سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني (ت: 563 هـ ق) في القرن السادس من الهجرة.

\$ تلقين المبتدى، لأبي محمد عبدالحق^٢ بن عبد الرحمن الإشبيلي (ت: 582 هـ ق) في القرن السادس من الهجرة.

–(296)–

\$ تعليم المتعلم لتعلم طرق التعلم، لبرهان الدين الزَّرْنُوجِي (عاش في: 593 هـ ق) في القرن السادس من الهجرة.

\$ الدراري في ذكر الذراري، لأبي حفص كمال الدين بن أحمد هبة الله عمر الحلبي والمعروف بابن النديم (568 – 660 هـ ق) في القرنين السادس والسابع من الهجرة.

\$ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لأبي عبداله بدرا الدين بن إسحاق الكناني، المعروف بابن جماعة الكناني (639 – 733 هـ ق) في القرنين السابع والثامن من الهجرة.

\$ تحفة الودود في أحكام المولود، لأبي عبداله محمد بن أبي بكر بن القيم، المعروف بابن القيم الجوزية (691 – 751 هـ ق) في القرن الثامن من الهجرة.

\$ شفاء المتألم في آداب المعلم والمتعلم، لعبد اللطيف بن عبد الرحمن بن أحمد المقدسي الشافعي، المعروف بابن غانم (786 – 856 هـ ق) في القرن التاسع من الهجرة.

\$ طريق تربية الأولاد – أو – الإجازة، لجلال الدين محمد بن أسعد الصديقي الدواني (830 – 908 هـ ق) في القرنين التاسع والعشر من الهجرة.

\$ اللؤلؤ النظيم في روم التعليم. لأبي زكريا الرازي (ت: 926 هـ ق) في القرنين التاسع والعشر من الهجرة.

\$ تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدب الأطفال، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن

حجر الهيثمي المكي (ت: 976 هـ ق) في القرن العاشر من الهجرة.

\$ منية المرید في أدب المفید والمستفید، لزین الدین بن نور الدین علی العاملی، المعروف بالشهید الثاني (911 - 965 هـ ق) في القرن العاشر من الهجرة.

\$ الدر النصید في أدب المفید والمستفید، لبدر الدین محمد بن رضی الدین الغزی

—(297)—

(904 - 984 هـ ق) في القرن العاشر من الهجرة.

\$ قانون على أحكام العلم وأحكام المتعلّمين، لحسن بن مسعود بن محمد ابن على البوسي المراكشي (1040 - 1102 هـ ق) في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الهجرة.

\$ وغيرها من الكتب الكثيرة التي دوّنت مستقلة في التربية والتعليم، ونحن نترك ذكرها ونجيل التعرف عليها إلى الجزء الأخير من كتابنا «آداب التعليم والتعلم في الإسلام» الذي هو شرح لكتاب «منية المرید في أدب المفید والمستفید» للشهید الثاني قدس سره.

وعليه فإنَّ الخطوة الأولى على طريق التربية والتعليم بمفهومها الحديث قد خطاها المسلمون منذ زمن بعيد بقرب صدر الإسلام؛ ذلك لأنَّهم يملكون ثقافة «ذات غنى» وثروة على هذا الصعيد، وكما قلنا فقد كانت بحوث العلماء المسلمين في ميدان التربية والتعليم قد بدأت منذ أوائل ظهور الإسلام، وكما أشرنا ألفوا فيها عشرات من الكتب التي استوحى منها العلماء الغربيون فيما بعد أفكارهم، ومن هذه الكتب كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» للفارابي، و«الرسائل» لإخوان الصفا، و«السياسة» لابن سينا و«إحياء علوم الدين» للغزالى وغيرها من عشرات الكتب التي كتبها المسلمون في التربية والتعليم أو في ما يرتبط بال التربية والتعليم، وهي كلها مصاديق واقعية تحكي عن غنى الثقافة الإسلامية، تلك الثقافة التي يصورها لنا القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وما ورد إلينا من الأئمة الكرام عليهم السلام والصحابة العظام - رضي الله عنهم - .

وإذا نظرنا في القرآن الكريم والأحاديث النبوية يظهر لنا بوضوح أنَّ في الثقافة الإسلامية لا تبدأ تربيةُ الإنسان بولادته، إذ إن ولادة الإنسان مرحلة من مراحل تربيته، فهي تعاليم التربية والتعليم

بل منذ انعقاد نطفته وحتى قبل ذلك أيضاً: فقد وردت التوصيات^٩ لل المسلمين بأن يختاروا لنطفهم من أجل خلق جيل سليم صالح، كما أن^{١٠} هناك توصيات تتعلق بما قبل انعقاد النطفة أيضاً فهذه الثقافة التي تقترح وصايا خاصة لاختيار الزوجة، وتعنى بالجيل الجديد قبل أن تتعقد نطفته وبعد أن يتكون^{١١} جنيناً في رحم أمه وبعد أن يولد ويمر^{١٢} بمرحلة الرضاعة، وبعد أن يختارها إلى المراحل الأخرى، إن^{١٣} هذه الثقافة الإسلامية السماوية لا تغفل^{١٤} عن الإنسان قبل ولادته ومنذ طفولته حتى اعتاب الشيخوخة والوفاة. ففي كل هذه المراحل تتواصل الوصايا والتعليمات والإرشادات^{١٥} البناء من أجل تربية هذا الإنسان وتعليمه في جميع مراحل حياته.

لو أردنا - المسلمين - واصلنا جهود السلف في حقل التربية والتعليم بشكل فاعل وجاد لاستطعنا أن نُكوّن حصيلة علمية في هذا الحقل يلجا العالم - كما كان في السابق - إلى أن ينتهل منها ويتعلّم عليها.

ولقد كان لل المسلمين اليد الطولى - بشهادة علماء الغرب أنفسهم - في علوم الطب والرياضيات والهندسة والهيئة والنجوم والكيمياء والفيزياء والفلسفة والأخلاق وغيرها وهنا أرى أن^{١٦} كتبنا الدراسية على العموم لا تحقق ما نصبو إليه من تقديم منهج تربوي سليم قائم على أسس إسلامية قويمة بل هي - إجمالاً - مبتلة بنقائص من أهمها:

الأولى: أنها تستقي كثيراً من آرائها ونظرياتها من رؤى غريبة على عالمنا الإسلامي وتصورات وأفكار لم تَنمُ في جو اسلامي وإنّما نمت في أجواء مادية غير إسلامية.

الثانية: أنها تتعرض بإسهاب للمدارس الغربية للتربية وتعرض جوانبها فإذا بلغت إلى المدرسة الإسلامية عرضت منها جوانب متفرقة ونصوصاً متباعدة. لا تستطيع أن تنهض - في تصور الطالب - بـ إقامة منهج تربوي متكملاً يعالج مختلف المشكلات

التربيوية الإنسانية، هذا في حين أنّ ما ذكرناه من كتب وقبلها ما عرضته النصوص القرآنية والنبوية الشريفة من رؤى حياتية يمكنها أن تقدم أروع أطروحة تنسجم مع واقع الإنسان وفطرته، بل إننا لندّعي أنّ المنهج التربوي الإسلامي - باعتبار قيامه وعلى أساسٍ من نظرية (الفطرة الإنسانية) وبملاحظة ما يقف وراءه من علم إلهي نافذ إلى الأعمق وموازن بين المصالح والمفاسد - ليشكّل لوحده المنهج التربوي الأصيل وما علينا إلا أن نجتهد لاكتشاف أبعاده الحياتية.

الثالثة: ومن الملاحظ في هذه الكتب التي تداولها جاماًعاًتنا أزّها قد تستند إلى آراء مفكّرين مسلمين لكنهم ليسوا من ذوي الاختصاص في عملية الاستنباط من النصوص الإسلامية لذلك تأتي استنتاجاتهم ناقصة أو مشوّهة، ثمّ تقدم للطلاب على أنّها الصورة الإسلامية المثلث!

ومن هنا فإنّني أدعو لنهاية علمية تربوية تعمل على عرض البرنامج التربوي واستنباطه من منابعه الأصيلة وبيان معالمه الإنسانية الرائعة، ولا يتم هذا إلا ببذل جهود اجتهادية متتابعة ومن الجدير بالذكر أنّ المجال التربوي وأبعاده أمر لا تختلف عليه المذاهب الإسلامية بل يكاد يشكّل أحد أروع ميادين الاتفاق بينها حيث تتكامل النصوص في كتب الشيعة والسنة تكاملاً فريداً، وهذا ما نجده عند مراجعة ما كتبه المرحوم الفيصل الكاشاني من تكميل لما عرضه المرحوم الإمام الغزالى في هذا المجال.

نُسأّل الله السلام وطول العمر للسيد القائد الكرييم آية الله الخامنئي، واستغفر الله لي ولكلّكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.